دو فصلنامه مطالعات ادب اسلامی
دوره ۲، شماره ۲، پیاپی ۴، بهار و تابستان ۱۴۰۲

نصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي
السنة ۲، العدد ۲، التسلسل ۴، ربيع وصيف ۲۰۲۳

التّواصل في الخطاب القرآنيّ
(قصّة "مريم العذراء (ع)" أنموذجاً)

سودابه مظفّري*[۱] (أستاذة مشاركة بفرع اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الخوارزمي، طهران)
كاوه رحيمي[۲] (طالب الدكتوراه في فرع اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الخوارزمي، طهران، إيران)

DOI: 10.22034/JILR.2023.139462.1073

CC BY

تاريخ دريافت: ۱۴۰۲/۰۵/۰۳
تاريخ پذيرش: ۱۴۰۲/۰۷/۲۲
صفحات: ۵۳-۷۱
تاريخ الوصول: ۲۰۲۳/۰۷/۲۵
تاريخ القبــول: ۲۰۲۳/۱۰/۱۴

المُلخَّص

لا ريبَ أنَّ العمليّة التواصليّة آلية من آليات البيان في الإعجاز القرآنيّ، كما تعتبر من أهمِّ النظريّات في اللّسانيّات الحديثة، والقرآن كنموذج أعلى للكلام البليغ لا يزال يحظى باهتمام الباحثين واللّسانيين. وبما أن الاتصال اللّغوي هو موضوع شامل لجميع جوانب الحياة، والقرآن الكريم أفضل دستور وأكمل منهج لحياة البشر حتّى يسير عليه في استقامة، فاخترنا القرآن الكريم لشموليّته واختصاصه بأحسن القصص لتطبيق عمليّة التّواصل فيه؛ فهذه الدراسة محاولة في تطبيق نظرية التّواصل في ضوء قصة مريم العذراء في القرآن موزَّعة في سورتي آل عمران ومريم؛ وسبب اختيار هذه القصّة يرجع إلى أنَّها أبلغ وأروع القصص القرآنيَّة في خرق العادات، موجَّهة في أَساليبها للتأثير على المخاطب وتعاملاتِه واستمالة العقول وتوجيه النّفوس. لقد وظَّف القرآن الكريم الكثير من الآليّات والتقنيّات من أجل تعدّي حدود التبليغ إلى الإقناع، وبما أنَّ القصّة تلعبُ دوراً بارزاً في التربية ولايزال موضع عناية البشر، فقد اتَّخذ البارئ – عزَّوجلّ– القصص وسيلة من وسائل الإقناع والتأثير في كتابه العظيم، وضمّن فيها أدلّته وحججه على الجاحدين والمشركين. فاعتمدنا في هذا البحث على المنهج الوصفي – التحليلي، فالمنهج الوصفي كان في وصف الأحداث التي مرَّت بها مريم العذراء، ثم تحليل القصّة لغويا وتبيينها من النَّاحية التَّواصلية وفق معطيات اللّسانيات الحديثة، والنتائج

[۱] الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: soud42_moz@khu.ac.ir
[۲] البريد الإلكتروني: rahimikaveh97@yahoo.com

تدلّ على احتواء قصّة مريم العذراء عناصر وأركان الاتصال اللغوي، وتحقيق الأساليب اللغوية في القصة فائدة تواصلية في الجانب الحواري.

الكلمات المفتاحية: نظرية التّواصل، الخطاب القرآني، قصة مريم العذراء، اللّسانيّات الحديثة.

تواصل در گفتمان قرآنی
(مطالعه موردی: قصه مریم عذرا)

چکیده

نظریه تواصل از مهم ترین نظریات در زبانشناسی جدید به شمار می رود و از آنجا که ارتباط زبانی همه زوایای زندگی را شامل می شود و قرآن کامل ترین رهنمود برای زندگی بشر است لذا قرآن را به سبب شمولیتش در برخورداری از بهترین قصه ها جهت عملیات تطبیقی در نظریه تواصل برگزیدیم. این پژوهش کوششی در راستای تطبیق نظریه تواصل در پرتوی قصه مریم عذرا در دو سوره آل عمران و مریم است که از شگفت ترین داستانهای قرآنی در امور خارق العاده است که در رفتارهای انسان اثرگذار می باشد. قرآن کریم در راستای رسانیدن تبلیغ به مرحله اقناع مخاطب، بسیاری از تکنیک ها را بکار گرفته است از جمله قصه هایی که مشتمل بر برهان ها و اعتراضات علیه منکران و مشرکان می شود. این پژوهش به شیوه توصیفی-تحلیلی انجام می گیرد، ازیک سو رخدادهایی که بر مریم (ع) گذشته را توصیف می کند و از سوی دیگر قصه را از بُعد زبانی و نظریه تواصل مطابق با داده های زبان شناسی نوین مورد تحلیل قرار می دهد؛ نتایج این پژوهش گویای این است که قصه مریم (ع) مشتمل بر مؤلفه ها و اصول ارتباط زبانی است و فواید سبک های زبانی در قصه از جنبه گفتمان را محقق می سازد.

واژگان کلیدی: نظریه تواصل، گفتمان قرآنی، قصه مریم عذرا، زبان شناسی نوین.

المقدّمة

نظريَّة التَّواصل الَّتي تُنسب إلى رومان جاكبسون من أهمِّ النظريَّات اللسانيَّة الحديثة، وقد تنوعَّت الدراسات اللسانية ولاسيَّما بعد دي سوسير، فلم يعدّ الاهتمام بنظام العلامات أو النظام النحوي فقط هو محطّ نظر اللسانيين، ولما كان القرآن رسالة شاملة وخالدة، ويشتمل على جميع عناصر العمليَّة التبليغيَّة، هو العلوم اللغويَّة والتَّواصل الَّذي يهتمُّ بهذا النَّوع من الدِّراسات، ولكى يحقق القرآن الكريم المقاصد السَّاميَّة، والغايات النَّبيلة، والمناهج القويمة، والقيم الرَّفيعة، فاعتمد أساليب التواصل والإقناع المختلفة بتقديم الأدلة والبراهين الساطعة وسوق الحجج الدَّامغة. وقع اختيارنا في الخطاب القرآني واختصاصه بأحسن القصص، لأنَّ القصص هو أحد ينابيع الاستدلال لكونه يحرِّك العقول ويستميل القلوب إلى غاياتها السَّامية، ومن هنا اتَّخذه القرآن الكريم سبيلاً للإقناع والتَّأثير والتبليغ، وضمن القصة الأدلة على بطلان اعتقاد المشركين وغيرهم، ثم كان اختيار قصَّة مريم العذراء كنموذج في عمليَّة التواصل اللغوي لأنَّها أبلغ وأروع في خرق العادات، وهو إنجاب مريم العذراء لطفلٍ من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى (ع) من أم بلا أب، لتظلَّ آثار القدرة الرَّبانيَّة ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهَّار (الصّابوني، ١٣٨٠ هـ.ش: ٢/٢١٠). هذه القصّة أعجب من قصة ميلاد يحيى لأنَّها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعله الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمّد (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) قصة مريم العجيبة الغريبة الدَّالة على كمال قدرة الله (نفسه: ٢/٢١٣)، والغرضُ من ذكر هذه القصّة الردّ على النصارى الَّذين ادَّعوا ألوهية عيسى (ع)، فذكر ولادته من مريم البتول ليدلَّ على بشريته، وأعقبه بذكر ما أيَّده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنَّه أحد الرسل الكرام الَّذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية (نفسه: ١/ ١٨٣). ولعلَّ القصص القرآني باعتباره قسماً ومحورا من محاور القرآن الكبرى قد اشتمل في سرده أخبار الأنبياء والرّسل والصَّالحين والأمم الغابرة على العديد من هذه الأساليب بغرض الاعتبار والاتّعاظ واستلهام الدّروس، على هذا الأساس ونظراً لأهميَّة ومكانة نظريَّة التواصل في اللسانيَّات الحديثة، بإمكاننا تطبيق نظرية التواصل ومكوناتها وأنواعها اعتماداً على المنهج الوصفي – التحليلي، في ضوء قصَّة مريم العذراء والحوارات الَّتي دارت بينها و بين شخصيَّاتها، مليئة بالقيم الغالية والنفسية العظيمة والأخلاق الراقية من الصبر والإخلاص والعفاف.

يحاول هذا البحث الإجابة عن السّؤالين الأساسيّين هما:

١. ما هى مظاهر الاتصال اللغوي في قصة «مريم العذراء»؟

٢. كيف حققت الأساليب اللغوية في هذه القصَّة فائدة تواصلية في الجانب الحواري؟

خلفيَّة البحث

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف، لهذا كان ولا يزال محطّ أنظار الباحثين؛ فإنّ أشرف ما يقدِّمه الباحثون وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون في بحوثِهِم وَتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم وعلومه الجليلة الزاهرة، على كثرة ما تحويه المكتبة الإسلاميّة من أسفار ضخمة وكتب نفيسة خدم بها العلماء و الباحثون كتاب اللهِ –الجليل– يبقى القرآن زاخراً بالعجائب، حافلا بالدرر والجواهر؛ أمّا بالنسبة للدراسات الَّتي تمحورت حول نظرية التَّواصل وتطبيقها في الخطاب القرآني، وقصَّة مريم (ع) نشير إلى بعض البحوث السابقة:

- مقالة "نظرية التواصل وأبعادها في الدرس اللغويّ العربيّ " (٢٠١٤م)، بقلم دلدار غفور حمدامين ونشأت علي محمود، السَّنة الثامنة عشرة، العدد الواحد، مجلة زانكو للعلوم الإنسانية، جامعة صلاح الدّين؛ تطرق الباحثان ببيان نظريَّة التواصل وعناصرها السِّتة: هى المرسِل، المرسل إليه، الرسالة، قناة الاتّصال، المرجع والسّنن (النَّظام) الَّذي يجري فيه الاتّصال؛ العوامل اللغويَّة السَّتة مع وظائفها لها أبعادها في التُّراث اللّغوي العربيّ ولاسيَّما في علمى النحو والبلاغة العربيَّة، تعدّ أركان نظرية التواصل الَّتي تُنسب إلى رومان جاكبسون.
- مقالة "سبك شناسي سوره مريم (ع)" (١٣٨٩هـ.ش)، كتبها محمد خاقاني ومحمد جعفر اصغري، السنة الثانية، العدد الأول، فصلية لسان مبين. تحاول هذه الدراسة معالجةما في سورة مريم (ع) من علاقات ترابطية والترادف والاشترك اللفظي والتكرار والإفراد والدلالة الصوتية مستعينة باللّسانيات والأسلوبية.
- مقالة "تحليل روايت‌شناختى داستان حضرت مريم(س) در قرآن كريم" (١٣٩٧هـ.ش)، كتبتها أعظم السّادات وآخرون، السَّنة الخامسة عشرة، العدد الثَّالث، فصليَّة «تحقيقات علوم قرآن و حديث» بجامعة الزَّهراء؛ تناولت هذه المقالة دراسة العناصر البنيويَّة والوجوه المختلفة والجمع بين هذه العناصر وكيفيّة دورها في السرد.
- رسالة "الاتّصال والتَّواصل في القرآن الكريم –سورة يوسف عليه السلام نموذجا–" (٢٠١٣–٢٠١٢م) كتبتها نادية لوانس وسعيدة شادلى، جامعة آلي محند أولحاج — البويرة – الجمهورية الجزائرية، استهدفت هذه الرسالة دراسة تطبيق نظريَّة التَّواصل في ضوء سورة يوسف (ع)،

اختصّ المبحث الأوّل بسورة يوسف في القرآن الكريم، تطرقت في المبحث الثّاني إلى نماذج الاتّصال اللّغوي و في المبحث الثّالث إلى نماذج من الاتّصال غير اللغوي.

على أساس الخلفية يمكن القول إن الدّراسة الحاضرة تمتاز بأنّها تهتم بتطبيق نظرية التواصل وعناصرها في قصّة مريم العذراء (ع) أو القضايا اللغوية المتعلقة بهذه القصة في الخطاب القرآني، كما أن القصة كانت من أقوى الوسائل في الدعوة والتبليغ.

نظريّة التّواصل

بما أنَّ التّواصل بوصفه ظاهرة اجتماعيَّة حيويَّة ويعتبر ضرورة حتميَّة في تكوين المجتمع الإنسانيّ، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان دون أن يتّصل مع غيره، فحاجته لذلك كحاجته للهواء والماء والغذاء للمحافظة على وجوده وبقاء حياته. إذن التّواصل ظاهرة أساسيَّة لتعارف النّاس واستمرار حياتهم وتقدّمها، كما يقول الله – عزَّ وجلَّ–في هذا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات /١٣)، فالإنسان اجتماعيّ بطبعه، و اجتماعيّة الإنسان تقتضي التّعارف والتّعايش والتّعاون حفاظا على البقاء والاستمرار والتقدّم والازدهار.

تعدّدت مفاهيم التّواصل وتنوّعت مدلولاتها الثّقافيّة باختلاف المرجعيّات العِلميَّة وتعدّد العلماء والباحثين والدّارسين الذين تناولوا هذا المصطلح في شتّى التّخصصّات؛ حيث يستخدمها مهندسوا الإتّصال للإشارة إلى الهاتف والتّلغراف والرّاديو، ويستخدمها الأطبّاء في الإشارة إلى الأمراض المعدية، ويستخدمها علماء علم الاجتماع في الإشارة إلى العمليَّات الَّتي يُؤثِّرُ بها وعن طريقها الأفراد فيمن حولهم وينظر علماء علم السيَّاسة إلى المجتمعات على أنَّها نظم اتّصال. نستنتج من هذا الكلام أنَّه على الرَّغم من اختلاف وتعدّد معاني ودلالات لفظة التّواصل في شتّى التّخصّصات إلّا أنَّها تشترك جميعاً في أمر واحد وتصبّ في إناء واحد، ألا وهو علاقة الإنسان بغيره، وارتباطه به ومشاركته له ممَّا يؤكّد إجتماعيَّة الإنسان (مزواغي، ٢٠١١-٢٠١٢م: ٣/٢).

من الممكن أن نعد النظريَّات اللغويَّة الحديثة ابتداءً من دي سوسير مؤسس النظريَّة البنيويَّة وما تلاها من نظريات هى محاولة لمعرفة اللّغة (حمدامين و على محمود، ٢٠١٤م: ١١٧)، نظرية التّواصل من أهمّ النظريَّات اللّسانية الحديثة، ويعتبر رومان جاكبسون من أهمّ العلماء الَّذين تحدَّثوا عن عمليَّة التّواصل من زاوية لسانيَّة، حيث أسَّس نظريَّة التّواصل اللّغوي انطلاقاً من العلاقة الوثيقة بين

اللّسانيّات ومختلف العلوم وخاصَّة علم التَّواصل الَّذي اهتمّ به اهتماما بالغا باعتبار أنَّ اللغة هى الوسيلة الأولى الَّتي تؤسِّس كلّ عمليَّة تواصليَّة بالنّسبة للإنسانيّة جمعاء. وتتمثَّل عناصر الشبكة عنده في المرسل (المتكلّم أو المبدع أو الكاتب)، والمرسل إليه (السَّامع، المتلقِّي)، والرسالة (المحتوى، الموضوع)، والقناة (النَّاقلة)، والسِّياق (المرجع)، والسنن (الرموز وقوانين الترميز)(نفسه:٤١).

ولكي نفهم النظرية اللغوية التّواصلية فلابدّ من أن نبيّن معنى (التواصل) لغة، فإنَّ جذره (وصل) خلاف الفصل والانقطاع، والتواصل على وزن (تفاعل) لما يصدر من اثنين فصاعداً، و(تواصل) من (واصل) المتعدّي إلى مفعول واحد، وبهذا سيكون (تواصل) مكتفيا بالفاعل لأنَّ المقصود منه قيام الفعل بالفاعل، فلا ينظر إلى تعلق الفعل بالمفعول هنا، لأنَّ وضع (تفاعل) لنسبته إلى المشتركين فيه من غير قصد إلى ما تعلَّق به (نفسه: ١١٨).

وقد اعترف البنيويون لدي سوسير بقصب السبق في تأسيسه لنظرية التَّواصل من داخل اللسانيّات البنيوية، ثمَّ جاء الباحث النفسي الألماني كارل بوهلر مبينا عمل دي سوسير ومكملاً له، فذكر ثلاثة محاور تقوم عليها العمليَّة التخاطبية وهي: المرسل(ضمير المتكلّم) والمرسل إليه (ضمير المخاطب) والموضوع، ويتولد عن المرسل الوظيفة الإنفعالية وعن المرسل إليه الوظيفة الإفهامية وعن الموضوع المرجعية، فالموضوع هو ما يصدره المرسِل متوجها به إلى المرسل إليه. وبناء على أنموذج بوهلر الواضح السهل للعمليّة التّواصلية استطاع رومان جاكبسون أن يطوّر هذه المحاور ويستدلّ بسهولة على بعض الوظائف اللّسانية الإضافية، لقد انطلق جاكبسون من أساسيات بوهلر للعملية التخاطبية، فزاد على العوامل التخاطبية الثلاثة (المرسل والمرسل إليه والموضوع) لتكون له ستة عوامل يستلزمها التواصل اللغوي ثم جعل لكلِّ عامل وظيفة مختصة به (نفسه: ١١٩).

مفهوم الخطاب

الخطاب مفهوم متعدد الجانب والمعنى، وقداكتنفه الإبهام والغموض خاصة بسبب تنوع الحقول العلميَّة والمعرفية الَّتي تتصل بهذا المفهوم مثل اللّسانيات والدراسات الأدبية والفلسفية والاجتماعية والسياسية وعلم النفس والتأريخ والفن (مک دانل، ١٣٨٠هـ.ش: ٩). لفظة الخطاب (discoursus) مأخوذة من اللفظة الفرنسية (discours) وهى بدورها مقتبسة من اللفظة اللاتينية (discursus) بمعنى الحوار والكلام (نفسه: ١٠). كان اللّساني الإنكليزي زليک هريس رائد دراسات الخطاب في (١٩٥٢م)، هو الذي وسَّع مفهوم الخطاب إلى مجال أوسع؛ بما أنَّ تحديد المصطلح يقرِّب الفهم الخاص بكلّ علم،

والخطاب من المصطلحات الغربيَّة المنطلق الَّتي تحتاج إلى تدقيق، وللوقوف على بعض مفاهيم الخطاب نعود إلى المدوّنة العربيَّة والغربيَّة لاستقرائها وتبيين هذا المصطلح.

إذا أمعنا النظر في الثَّقافة العربيَّة وأهمَّ ما يمكن الرجوع إليه في هذا الباب في تراثنا اللّغوي هو كتاب الله العظيم، فلفظة "الخطاب" في القرآن الكريم ورد اثنتى عشرة مرَّةً بصيغ متعددة. فعلى سبيل المثال: بصيغة الفعل في هذه الآية: ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ (هود/٣٧) وبصيغة المصدر في الآية الأخرى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾. (ص/٢٠) كان مفهوم الخطاب عند التهانويّ هو: «توجيه الكلام نحو الغير للإفهام» (التهانوي، ١٩٧٢: ١٧٥)، وأمَّا ابن جني في الخصائص فقد عرَّف الكلامَ على أنَّه خطاب، بقوله «والخطاب هو لفظ مستقلّ بنفسه، مفيد لمعناه، يتّسم بالأصل الشَّفهي» (ابن جني، ١٩٩٩: ٣٢)، نستنج من هذه التّعريفات أنَّ التّراث العربيّ قد تحسّس أهميَّة الخطاب والدور التّداولي الَّذي هو من أهمِّ شروطه، كما تكمن فيه أهمُّ الأسس للنَّظريات اللّسانية الحديثة (شلباب، ٢٠١٦-٢٠١٥م: ١٠)؛ أمَّا عند النَّحاة فقد ورد اسم المفعول "المخاطب" للدلالة على طرف الخطاب الآخر الَّذي يوجه المرسلُ كلامه إليه، وذلك عند حديثهم عن المضمرات. عرَّف طه عبدالرحمن الخطاب بقوله: «إنَّ المنطوق به – أي الخطاب- الَّذي يصلح أن يكون كلاماً: هو الَّذي ينهض بتمام المقتضيات التَّواصليَّة الواجبة في حقِّ ما يسمَّى خطاباً، إذ حدَّ الخطاب أنَّه كلِّ منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً» (عبد الرحمن، ٢٠١٢م: ٢١٥)، ممَّا يعني أنَّ الخاصيَّة التواصليَّة ملازمة للخطاب الَّذي يتطلَّب متلقيا.

أمَّا إذا بحثنا عن مفهوم الخطاب في المنظور الغربي، فإنَّ له تعريفات عديدة بحسب التَّوجه: وقد جاء في محاضرات دي سوسير أنَّ الخطاب: «يعدّ رسالة لغويَّة يبثّها المتكلِّم إلى المتلقّي ويفكّ رموزها»، وعرّف شولتر الخطاب بأنَّه «تلك الجوانب التقويمية والتقديرية، أو الإقناعيّة، أو البلاغيَّة في نصّ ما، أي في مقابل الجوانب الَّتي تسمَّى أو تشخّص أو تنقل فقط» (شولتر، ١٩٩٣: ٤٨)، الخطاب: في معجم اللّسانيات لجون دوبوا له ثلاثة تحديدات:

١. يعني اللّغة في طور العمل، أو اللّسان الّذي تتكلَّف بإنجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام عند دى سوسير.

٢. وحدة توازي أو تفوق الجملة، ويتكوَّن من متتالية تشكِّل مرسلة لها بداية ونهاية، وهو هنا مرادف للملفوظ.

٣. أمَّا التّحديد الثالث، فهو: كلّ ملفوظ أعلى من الجملة منظورا إليه من وجهة نظر قواعد تسلسل متتاليات من الجمل (نفسه: ١٣).

قصَّة مريم

إنّ المتأمّل في آيات القرآن الكريم يجد أسلوباً متميزاً، ألا وهو أسلوب القصَّة، فما من شك أنَّ للقصص طريقته الخاصة في عرض الحقائق وإدخالها ألى القلوب في صورة حيَّة عميقة الإيقاع، بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعية وهى تجري في الحياة البشرية، وهذا أوقع في النفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريدياً (السيِّد قطب، ١٩٧٢م: ٣٨٩/١). وردت قصّة مريم (ع) في سورتى آل عمران ومريم بعد قصَّة زكريَّا (ع) مباشرة وميلاد يحيى لتلازمهم، ولأنَّ الأولى كانت تمهيداً للثَّانية وهى المرأة الوحيدة المذكور اسمها في القرآن الكريم؛ وذلك لأنَّها فذَّة ومفردة بين نساء العالم بشيء لايحدث ولن يحدث إلَّا لها. فهو أمر لن يتكرر ولاتستطيع امرأة أن تدعيه.

ونظرا لغرابة الحادث وضخامته فقد عزّ على فرق من النَّاس أن تتصورَّه على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضفي على عيسى ابن مريم –عليه السَّلام– صفات ألوهية، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، –وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد– تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد. والقرآن في هذه السورة يقصّ كيف وقعت هذه العجيبة ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفى تلك الخرافات والأساطير المزخرفة. والسياق يخرج القصة في مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والإنفعالات التي تهز من يقرؤها هزَّاً كأنَّما هو يشهدها (السيِّد قطب، ١٩٧٢م: ٢٣٠٥/٤).

وبما أنّ القصص القرآني يهدف إلى الوعظ نجد التكرار فيه، فتارة تأتي القصة للبرهان وتارة أخرى للتبيان، فتحصل بها مقاصد الخطبة والوعظ وبالتالي ترسخ في الأذهان، وتظهر البلاغة بتعدد الأساليب في التعبير عن غرض واحد، وهو وجه من أوجه الإعجاز. نحاول أن نبيّن هذا الجانب الإعجازي في الخطاب القرآني وفق نظريَّة التواصل.

عناصر العَمَليَّة التَّواصليَّة في قصَّة "مريم العذراء" (ع)

تعتمد عمليّة التَّواصل على مجموعة من العناصر المتّصلة والمتداخلة والمتشاركة مع ظروف نفسيّة واجتماعيّة تؤثّر في النّهاية على انتقال الأفكار والمعلومات بين الأفراد، وهذه العناصر هى:

الف) المرسل[1]

هو منشيء الرّسالة الَّذي يؤثّرُ في الآخرين «المتلقّين» بشكل معيَّن عن طريق عرض أفكار أو معلومات أو آراء أو غيرها (مزواغي، ۲۰۱۲- ۲۰۱۱م: ١٦)، والمرسل: "هو الَّذي يصوغ فكرة في شكل رموز معيَّنة ويبعثها في شكل معلومات أو أفكار أو آراء أو معان إلى الآخرين" (بدوي، ۱۹۸۵م: ٤٤)، ويعتمد نجاح الرّسالة في تبليغ المعنى على حسن اختيار الرّموز من قبل المرسل ليعبّر عن فكرته بدقّة ووضوح. قال الله –تعالى- في قصة مريم (ع): ﴿**فاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ (مريم /١٧) فمصدر الإرسال في هذه الآية الكريمة هو الله – سبحانه وتعالى- وما دلّ على ذلک هو ضمير الجمع للمتكلّم الَّذى يعود على ذاته العليَّة (نون الجماعة في «أرسلنا، روحنا»)، وهناک الكثير من الآيات في القرآن الكريم الّتي تدلّ على المرسل والّتي لا يتّسع المقام لذكرها كلّها، والاختلاف يكمن في شخصيّة المرسل في حدّ ذاته، فمثلا قوله –تعالى- في آية أخرى: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا**﴾ (مريم/ ١٩)، فالمرسِل هنا يتمثل في روح الأمين.

ب) المتلقّي[2]

وهو مستقبل الرّسالة وهو طرف ضروريّ وعنصر أساسيّ في العمليَّة التَّواصليَّة سواء أكان هذا المتلقّي فردا أو جماعة أو مؤسّسة أو جمهورا أو جماهيريّا. والَّذي يتلَّقى محاولات التَّأثير الصّادرة عن المرسل الَّتي على إثرها يتجاوب ويتفاعل معه فأثناء الحديث أو الكلام السَّامع هو المتّهم وأثناء الكتابة القارىء هو المتّهم، باعتبار كلّ منهما متلقّ، وقد يكون هو نفسه المرسل، كما هو الحال في التَّواصل الذَّاتي (مزواغي، ۲۰۱۲- ۲۰۱۱: ١٧)، قال –سبحانه وتعالى-: ﴿**قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا**﴾ (مريم/٢١)، فالمستقبل في هذه الآية النَّاس كافَّة، لأنَّ الإسلامَ رسالة لكلِّ البشر ورحمة للعالمين. أى كذلک الأمر حكم ربُّک بمجيء الغلام منک وإن لم يكن لک زوج، فإنَّ ذلک على الله سهل يسير، ليكون مجيئه دلالة للنَّاس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثه نبيَّاً يهتدون بإرشاده (الصّابوني، ۱۳۸۰ هـ.ش: ٢١٤/٢)، وهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم (ع) وقوعه، هيّن على الله. وأنَّه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للنَّاس، وعلامة على وجوده وقدرته

[1] Emetteur
[2] Recepteur

وحريَّة إرادته، ورحمة لبني إسرائيل أوَّلاً وللبشرية جميعاً، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه(سيّد قطب، ١٩٧٢: ٢٣٠٦/٤). وقال –عزّ وجلّ–:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾ (مريم/١٦)، فالمتلقّي في هذه الآية الكريمة هو الرَّسول – عليه الصَّلاة والسَّلام– والمعنى اذكر يا محمد قصَّة مريم العجيبة الغريبة الدَّالة على كمال قدرة الله أى حين تنحَّت واعتزلت أهلها في مكان شرقيّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله (الصَّابوني، ١٣٨٠ش: ٢١٣/٢).

ج) الرّسالة[1]

هى أساس ولُبّ العمليّة التَّواصليّة، ونعني بالرّسالة المعلومات أو الآراء أو المشاعر أو الاتّجاهات الّتي يرغب القائم بالتّواصل في نقلها إلى الآخرين عبر الرّموز الّتي قد تكون صوتيّة مثل الكلام أو صوريّة مثل الكتابة أو حركيّة مثل الإشارات أو قد تكون خليطة من الأشكال والرّموز، وفي هذا الشَّأن يُقال: «الرّسالة هى جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤدّيها إلى غيره» (العسكري، ١٩٦٣م: ٢٨٤)، وهناك ثلاثة أمور يجب أخذها بعين الاعتبار بالنّسبة للرّسالة، ألا وهى: كود الرّسالة (الرموز) – مضمون الرّسالة – معالجة الرّسالة.

أ– الشفرة[2]

وهى عبارة عن مجموعة من الرّموز توضع في ترتيب معيّن فتشكل للمتلقي مغزى يفهمه اذا كانت الرّسالة معبّرة عن مضمونها، وذات معنى محدّد يتناسب مع مقصد المرسل، ومثل ذلك في القرآن الكريم ما جاء في قصَّة مريم (ع): ﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾،﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾،﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ (مريم:٢٧–٢٩)؛ أدركت مريم (ع) بعد حملها كيف واجهت مع قومها و أوحى الله لها فأما إذا واجهت أحداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنت نذرت للرحمن صوماً عن حديث النَّاسِ وانقطعت إليه للعبادة. ولا تجيبي أحداً عن سؤال، إنّ ألسنتهم لتنطلق بالتفريع والتأنيب: ﴿**قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾ أى فظيعاً مستنكراً. ثُمَّ يتحول السخط إلى تهكم مرير في خطابهم: «يا أخت هارون» النَّبي الذي تولَّى الهيكل هو وذريَّته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل. فيا للمفارقة بين تلك النسبة الَّتي تنتسبينها وذلك الفعل الَّذي تقارفينه!﴿**مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ**

[1] Message
[2] Code

سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، حتَّى تأتي بهذه الفعلة الَّتي لايأتيها إلَّا بنات آباء السوء والأمهات البغايا! وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب الَّتي لقنها إيَّاها: **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾** فماذا نقول في العجب والغيظ الَّذي ساورهم وهم يرون عذراء توجّههم بطفل؛ ثمَّ تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير إلى الطفل ليسألوه عن سرِّها (السيِّد قطب، ۱۹۷۲: ٤/ ۲۰۳۷).

ب- المضمون[1]

يعرف المضمون بأنّه مادّة الرّسالة أو محتواها والّذي يختاره القائم بالتّواصل ليُعبّر عن هدفه و مغزاه، فهو العبارات الّتي تقال والمعلومات الّتي تقدّم والإستنتاجات الّتي تستنبط والأحكام الّتي تقترح؛ قال – عزَّوجلّ- **﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾**، **﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾**، **﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾** (مريم: ۳۱و۳۲)؛ ما يستخلص من الآيات أنَّ سيّدنا عيسى (ع) فصّل مضمون رسالته إلى قومه حين كلَّمهم وقال: أنا عبدالله خلقني بقدرته من دون أب، وقضى ربِّي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبيًّا، وإنَّما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه، فإنَّ ما حكم به الله أزلاً لابدَّ أن يقع، وأوصاني بالصَّلاة والزكاة مدَّة حياتي، وهكذا دافع عن والدته، وأقام الحجَّة على المشركين والجاحدين، فلم يبق لهم إلّا إتّباع طريق الهدى بعد أن تبيَّن لهم الحقّ، أو الضَّلال باتّباع هوى الشيطان (مزواغي، ۲۰۱۲- ۲۰۱۱: ۱۹).

ج- معالجة الرّسالة[2]

تتمثَّل في الطّريقة أو الكيفيَّةِ الّتي يقدّم بها المرسل مضمون رسالته وفي اختيار الرّموز والشّفرة المناسبة لها، فقد يختار المرسل رسالة معينة ويحددّ فيها المعانى والأدلّة الّتي يريدها، ولا يذكر كلّ الحقائق أو التَّفاصيل فيها، حيث يترك للمتلقّي مهمَّة الرّسالة. وهكذا تتحقق أهداف كلّ فرد في اتّخاذ القرارات الأفضل (نفسه)، قال تعالى: **﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** (آل عمران/۳۷)، في هذه الآية الكريمة **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾** يدلَّ قوله على الإيجاز بالحذف ولم يذكر من التَّفاصيل، بل ركَّز على القيم والعبر فيها، أى أنَّه عالج ما هو هامّ ومستهدف في الرِّسالة، أى كانت مريم ملازمة بيت المقدس للخدمة، وكانت

[1] Content
[2] Traitement de Message

تتعبد بمكان تتخذه لها محراباً، وكان زكريّا يتعهد تعبدها فيرى كرامةً لها وجود أثمار عندها في غير وجود صنفها، و﴿**كُلَّمَا**﴾ مركبّة من (كلّ) الَّذي هو اسم لعموم ما يضاف إليه، و (ما) الظرفية وصلتها المقدَّرة بالمصدر، والتقدير: كلَّ وقت دخول زكريَّا عليها وجد عندها رزقاً، وانتصب كلّ على النيابة عن المفعول فيه، و(أنَّى) استفهام عن المكان. أى من أين لک هذا. فلذلک أجابت مريم بـ «مِن عند الله»، واستفهام زكريّا عن الرزق لأنَّه في غير إبَّانه. وجملة ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَـرْزُقُ مَـنْ يَشَـاءُ بِغَيْرِ حِسَـابٍ**﴾ من كلام مريم المحكي. والحساب في قوله «بغير حساب» بمعنى الحصر، لأنَّ الحساب يقتضي حصر الشيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى إنَّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يعرف مقداره لأنَّه موكول إلى فضل الله (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٣/٢٣٦).

الوسيلة (القناة)[1]

الوسيلة هي الوسيط لنقل الرّسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه، وقد تكون الوسيلة سمعيّة مثل: الخطب والمحاضرات والإذاعة، أو بصريّة كما في المطبوعات (كتب، صحف، مجلّات، صور، ملصقات ...)، أو سمعيّة بصريّة مثل التّلفزيون أو السّينما أو الفيديو، أو قد تكون الحواس الإنسانيَّة من سمع وبصر وشم وذوق ولمس كما هو الحال في التواصل الذاتي (مزواغي، ٢٠١٢- ٢٠١١: ١٩). قال تعالى: ﴿**فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾، ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾، ﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا** ...﴾ (مريم:٢٤-٢٦)، ضمير الرفع المستتر في «ناداها» عائد إلى ما عاد عليه الضَّمير الغائب في «فحماته»، أي ناداها المولود، وهذا إرهاص لعيسى وكرامة لأمّه – عليهما السَّلام–، وقيد «من تحتها» لتحقيق ذلک ولإفادة أنَّه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسليَّة والبشارة وتصويرا لتلک الحالة الَّتي هى حالة تمام اتّصال الصبيّ بأمّه. فائدة قوله ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ أن يكون إثمار الجذع اليابس رُطبا ببركة تحريكها إيَّاه، وتلک كرامة أخرى لها. وضمَّن ﴿**وَهُزِّي**﴾ معنى قرّبي أو أدني، فعدى بـ (إلى)، أى حرِّكي جذع النخلة وقرّبيه يدنُ إليک ويَلِن بعد اليبس ويُسقط عليک رطبا، والمعنى: قرّبي إلى نفسک جِذع النخلة. ﴿**جَنِيًّا**﴾ فعيل بمعنى المفعول، أي مجتنىً، وهو كناية عن حدثان سقوطه، أى عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل، لأنَّ الرطب متى كان أقرب عهدا بنخلته كان أطيب طعما. وجملة ﴿**وَقَرِّي عَيْنًا**﴾ تشمل هناء

[1] Canal

العيش والأنس بالطفل المولود. وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه (إبن عاشور، ١٩٨٤م: ٨٩/١٦).

التّشويش[1]

هو عائق أو مانع يتدخّل إثر انتقال الرّسالة من المرسل إلى المتلقيّ فيقلّل من فعاليّتها أو يدفع إلى تغيير معناها محدثا سوء الفهم، والتّأويل الخاطىء يجعل الرّسالة تنحرف عن هدفها، فالتّشويش يعيق عمليّة التّواصل لأنّه يقلّل من فعاليّة الرّسالة(مزواغي، ٢٠١٢- ٢٠١١: ٢٢)، ومن أمثلة ذلك في الخطاب القرآني قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ (آل عمران:٣٦)، نذرت امرأة عمران واسمها «حنَّة بنت فاقود» ما يحمله في بطنها مخلصاً للعبادة والخدمة، ولما ولدتها قالت متحّرة ومعتذرة: يا ربِّ إنَّها أنثى وظنَّت أنّه لم يكن مقبولا في النذر إلَّا الذكور، فقبل الله مريم (ع) وقال: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾ أى والله أعلم بالشيء الَّذي وضعت أَوَلَم يقل الله لمريم (ع) ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى**﴾ أى ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى الَّتي وُهبتها بل هذه أفضل، والجملتان معترضتان من كلامه –تعالى– تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علَّق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين. لقد عوذت أمها من الشيطان وهى حامل بها وهى بداية سيطرة الشيطان على الإنسان، لأن الشيطان على أن الميلاد بداية جديدة للخلق، حيث إنه فشل مع آدم، فيحاول مع كل بنيه من البداية. فكان الشيطان عائقا حقيقيا في العمليَّة التواصليَّة(أكرم، ٢٠٠٨م: ٨٠).

رجع الصّدى[2]

يقصد إعادة المعلومات للمرسل حتّى يستطيع أن يقرّر ما إذا كانت الرّسالة حققت أهدافها أم لم تحقق. كما أنَّ رجع الصّدى يشجّع المرسل على الاستمرار في بثّ رسالته ويقنعه بأنَّها أدَّت مهمّتها وحقّقت هدفها، أو العكس هنا ينبغي على المرسل أن يعيد تشكيل وبناء رسالته من جديد(مكاوى وسيد، ٢٠٠٢م: ٢٣). ومن أمثلة ذلك تضمنت قصة مريم العذراء (ع) رجع الصدى الدّاخليّ وهو ردّ فعل داخليّ يصدر عن الفرد عندما يتأثّر برسالة معيّنة مثل الحديث النّفسي الدّاخليّ أو مناجاة الذات، (مزواغي، ٢٠١٢- ٢٠١١: ٢٤) قال –تعالى–: ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا**

[1] Noise
[2] Feedback

لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ (مريم/٢٣)، ونلاحظ في معنى ﴿**فَأَجَاءَهَا**﴾ أي: ألجأها واضطرها، أي جاءها فجأة، وجاءها مصاحب بآلامه المعتادة فجلست تحت جذع النخلة. ها هي مريم الشابة الصغيرة تواجه الآلام الجسديَّة مع المحن النفسية، ويفاجئها المخاض ويلجئها إلى جذع النخلة تستند عليه وتتشبث به من آلام الولادة، لا تعرف شيئا ولا معين لها في شيء، لأم معها ولأخت ولاخالة ولاعمه ولاجارة بجانب شعورها الداخلي بعظم ما هي فيه وما ستقدم عليه من اتهام قومها لها وهي الشريفة العفيفة الطاهرة. ها هي مريم تعاني كل ذلك فتصرخ في نفسها قائلة: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾، أي: لم أكن شيئا يُذكر (أكرم، ٢٠٠٨- ١٤٢٩: ٩١).

أنواع التّواصل

«يعتبر المهتمّون بالتّواصل الإنساني كلَّ فهم منظم ثابت يعبِّر به الإنسان عن فكرة تجول بخاطره أو إحساس يجيش بصدره، إنَّما هو لغة قائمة بذاتها» (الطنوبي، ٢٠٠١م: ٤٣). قصَّة مريم العذراء (ع) مشتملة على نوعين من التَّواصل وسنذكر لكل منهما نموذجا.

التواصل اللغوي

كلّ أنواع الاتِّصال الَّتي يستخدم فيها اللفظ يعتبر هذا النوع من التواصل، واللفظ كوسيلة لنقل الرِّسالة من المرسل إلى المتلقّي، ويكون هذا اللفظ منطوقا فيدركه المستقبل بحاسَّة السَّمع؛ جاء في معجم مصطلحات الإعلام أنَّ التَّواصل اللغوي: «هو الإتصال الَّذي يعتمد على وسائل تتكوّن أساساً من كلمات مكتوبة أو غيرمكتوبة في توصيل الفكرة أو المعنى مثل النّشرات، التّقارير، الخطابات، المحادثات التّلفزيونيَّة والمؤتمرات» (زكي، ١٩٨٥: ٤٩). فلغة الكلام والكتابة إذن هي أساس من التَّواصل، وخير دليل على ذلك أنَّ القرآن الكريم اعتمد التَّواصل اللغوي في تبليغ الرِّسالة لأنَّه خطاب بين الله ورسوله، وإذا نظرنا إلى فحوى الخطاب القرآنيّ (عقيدة- تشريع- قصص ..) نجده قائما على التَّواصل اللغوي (في أساليب الأمر والنَّهي، الترغيب والترهيب، الحوار والجدل)، واللغة أداة رمزيَّة يتّم بواسطتها التَّعبير عن أفكار الإنسان ومشاعره ونقلها إلى الآخرين.

ولذلك تعدّ اللغة أهمَّ وسيلة يتحقق بها التّواصل بين النَّاسِ، وهذا يعني أنَّ الفكر بحاجة إلى الألفاظ اللغويّة وتركيباتها حتّى يتّم انتقاله بين النَّاس، كما تساعدنا على التَّفكير بطريقة أكثر دقَّة ووضوحا، والتَّواصل اللغوي عند عبد المجيد يحيى هو الذي يعتمد على الكلمات أو الألفاظ الَّتي تنطق

بها، واختيار هذه الكلمات الَّتي قد تعبّر عن أشياء مادّية أو معنويَّة والَّتي لا تحمل إلا معنى واحداً، وقد تحمل أكثر من معنى، وتتحدّد تلك المعاني من الإطار أو الوقت الَّذي تستعمل فيه (السيّاق)(مزواغي، ۲۰۱۲-۲۰۱۱م: ۲۹/۳۰). والتَّواصل اللّغوي يتمثل في حوار الملائكة مع مريم العذراء (ع) في قوله –تعالى-: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾، ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾، ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾، ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾، ﴿**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾. (آل عمران: ۴۲-۴۷) قوله ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ**﴾ عطف على جملة «إذ قالت امرأةُ عمران» وانتقل من ذكر أمّ مريم إلى ذكر مريم نفسها. وتكرَّرَ فعل «اصطفاك» لأنَّ الاصطفاء الأوَّل اصطفاء ذاتي وهو من الإطناب. وهو جعلها منزَّهة زكيَّة، والثَّاني بمعنى التفضيل على الغير. ونساء العالمين نساء زمانها، أو نساء كل الأزمنة. وتكليم الملائكة والاصطفاء يدّلان على نبوءتها (إبن عاشور، ۱۹۴۸م: ۲۴۴).

وإعادة النداء في قول الملائكة «يا مريم اقنتي» لقصد الإعجاب بحالها. لأنَّ النداء الأوَّل كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثَّاني مستعملاً في مجرّد التنبيه الَّذي ينتقل منه إلى لازمه وهو التنويه بهذه الحالة والإعجاب بها، والقنوت ملازمة العبادة. وقوله «مع الرَّاكعين» إذن لها بالصَّلاة مع الجماعة، وهذه خصوصية لها من بين نساء إسرائيل إظهارا لمعنى ارتفاعها عن بقيَّة النساء، ولذلك جاءت لفظة "الرَّاكعين" بصيغة جماعة المذكر.

وهذا الخطاب مقدمة للخطاب الَّذي بعده وهو «يا مريم إنَّ الله يبشركِ بكلمة منه» لقصد تأنيسها بالخبر الموالي، لأنَّه لما يجلب حاصله لها حزناً وسوء قالة بين النَّاس، مهّد له بما يجلب إليها مسرّة، ويوقنها بأنَّها اختُصّت بعناية الله، فلاجرم أن تعلم بأنَّ الله جاعل لها مخرجا وأنَّه لا يخزيها.

وقوله «وما كنت لديهم» إيماء إلى خلوّ كتبهم عن بعض ذلك، وإلَّا لقال: وما كنت تتلو كُتبهم مثل«وما كنت تتلوا من قبله من كتاب»، أى إنَّك تخبرهم عن أحوالهم كأنَّك كنت لديهم. أشارت الآية إلى أنَّهم تنازعوا في كفالة مريم حين ولدتها أمها حنَّة، إذ كانت يتيمة كما تقدم، فهذا الامتنان يخبر بأنَّ كفالة زكرياء مريم (ع) كانت بعد الاستقسام وفيه تنبيه على تنافسهم في كفالتها.

قوله ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ**﴾ بدل اشتمال من جملة «وإذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله اصطفاك» قصد منه التكرير لتكميل المقُول بعد الجمل المعترضة. ولكونه بدلا لم يعطف على إذ قالت الأول وتقدَّم الكلام على يبشرك. والمراد من وصف عيسى بالكلمة كلمة خاصة غيرمعتادة في تكوين الجنين أى بدون الأسباب المعتادة. وقوله منه "من" للابتداء المجازي، أى بدون واسطة أسباب النسل المعتادة وقد دلَّ على ذلك قوله «إذا قضى أمراً». والوجيه ذو الوجاهة وهى: التقدّم على الأمثال، والكرامةُ بين القوم، وهى وصف مشتق من الوجه للإنسان وهو أفضل أعضائه الظاهرة منه، وأجمعها لوسائل الإدراك وتصريف الأعمال، فأطلق الوجه على أوَّل الشيء على طريقة الاستعارة الشائعة (نفسه: ٢٤٦)، ويقولون: هو وجه القوم أى سيِّدهم والمقدَّم بينهم. واشتق من هذا الإسم فعل وَجُه بضم الجيم ككرُم، فجاء من وجيه صفةً مشبَّهةً، فوجيه النَّاس هو المكرَّم بينهم ومقبول الكلمة فيهم (نفسه: ٢٤٧).

قوله «قالت ربِّ» جملة معترضة، من كلامها، بين كلام الملائكة. والنداء للتحسر وليس للخطاب: لأنَّ الَّذي كلَّمها هو الملك، وهى قد توجَّهت إلى الله. والاستفهام في قولها "أنَّى يكون لي ولد" للإنكار والتعجّب، ولذلك أجيب جوابين: أحدهما "كذلك الله يخلق ما يشاء" فهو أزال إنكارها، والثَّاني "إذا قضى أمرا إلخ" لرفع تعجّبها (نفسه: ٢٤٩).

التَّواصل غير اللغوي

وهو اعتماد علامات أخرى دالَّة من غير اللغة المنطوقة أو المكتوبة المتعارف والمتّفق عليها في مجتمع ما، كلغة الحركات والإشارات والإيماءات والتَّغيُّرات الفيزيولوجيّة الَّتي تطرأ على الإنسان نتيجه انفعال معيَّن، يقول نايف خرما: «إنَّ تعريف بعضهم بأنَّ اللغة وسيلة للإتصال بين البشر ليس تعريفا دقيقا تماما، فمن ناحية يمكن أن يحصل التَّواصل بين البشر بوسائل غير لغويَّة تتراوح بين ردود الفعل العفويّ كاحمرار الوجه دلالة على الخجل، والعبوس تعبيرا عن الغضب، والإيحاء المعتمد بأحد أجزاء الوجه والوسائل الكثيرة الأخرى كالرّسوم والنّقود والأعداء .. والقصيدة الشّعريَّة أو القطعة الموسيقيَّة ..» (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١م: ٣٢)، وبعض الأحيان يطلق على هذا النوع من التَّواصل باللغة الصّامتة أوالسَّاكتة، وخير مثال له حوار مريم(ع) مع قومها حين أتت قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى (ع) على يديها قال الله –تعالى–: ﴿... **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾، ﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾، ﴿**يَا**

أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾** (مریم: ٢٦-٢٩)؛ فالتَّواصل غیر اللفظي في هذا الحوار یتمثل في استعمال لفظة ﴿صَوْمًا﴾ وإن لقیت من البشر أحداً فقولي: "إنّي نذرت صوماً" فحذفت جملة للقرینة. وهو الإیماء إلى أنَّها نذرت صوماً مجازاً بقرینة قوله ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾ فالمراد أن تؤدي ذلک بإشارة إلى أنَّها نذرت صوماً بأن تشیر إشارة تدلُّ على الانقطاع عن الأكل، وإشارة تدلُّ على أنَّها لا تتكلَم لأجل ذلک (إبن عاشور، ١٩٨٤: ٩٣/١٦)، وأیضا یتمثل فی لفظة ﴿**فَأَشَارَتْ**﴾ عندما جاءت إلى قومها ورأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها: لقد جئتِ شیئاً عظیماً مُنكراً ویا شبیهة هارون في الصلاح والعبادة، ما كان أبوک رجلا فاجراً وماكانت أمُّكِ سیئةً فكیف صدر هذا منک وأنت من بیت طاهر معروفٍ بالصلاح والعبادة؟ في هذه الفترة لم تجبهم مریم (ع) وأشارت إلى عیسى (ع) لیكلِّموه ویسألوه (الصَّابوني، ١٣٨١هـ.ش: ٢١٥/٢).

النَّتائج

في دراستنا هذه تطرقنا إلى تطبیق نظریَّة التَّواصل فی قصّة مریم وتوصّلنا إلى النتائج التالیة: نظریَّة التواصل الَّتي تُنسب إلى رومان جاكبسون من أهمِّ النَّظریَّات اللسانیَّة الحدیثة ولها مكانة عظیمة في الدراسات اللغویة ولاسیّما الدراسات القرآنیّة الّتي تظهر لنا جوانب من الإعجاز القرآني، لقداهتمّ الباحثون والدارسون بهذه النظریّة اهتماما بالغا ضمن البحث في الخطاب القرآني عموماً، والقصص القرآني على وجه الخصوص.

دراسة نظریة التواصل في قصّة مریم برزت لنا كیفیّة إظهار الله –تعالى– ادِّلته في الردِّ على النَّصارى والمشركین والجاحدین من الأقوال الشنیعة اقترفوها لمریم (ع) ومن الخرافات والأساطیر المزعومة حول مولد عیسى (ع) لإقناعهم، وعالجنا مكونات ستَّة لنظریة التواصل في قصة "مریم العذراء (ع)" ونوعین من التواصل اللغوي وغیر اللغوي وعرض نموذج لكل منهما.

قصَّة مریم وعیسى –علیهما السَّلام– هی أبلغ وأروع القصص القرآنیّة في خرق العادات، الّتي إظهرت المعجزة المعجبة بمیلاد عیسى (ع)، لتظلَّ آثار القدرة الرَّبانیة ماثلة أمام الأبصار بعظمة الواحد القهَّار وحافلة بالعبر والقیم الأخلاقیة والنفسیَّة واستلهام للدروس. دراسة نظریة التواصل في قصة مریم (ع) دلیل على أنَّ علوم القرآن بحر زاخر لاتنتهي علومه وعجائبه ولاینضب معینه، وأن لا یمكن

للعقل البشريّ الإحاطة بها جميعا، وأنَّ البحث والاكتشاف فيها مستمرّ ومتواصل ولا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي النّهاية هذه الدراسة تشير إلى أنّ القرآن وتفسيره لايُحدّ بزمن خاصّ ولابقالب محدود، بل يجري مع الزّمان والتقدّم العلميّ والأدبيّ، فيجب أن يهتمّ المفسّرون وعلماء القرآن بتفسير جديد عصريّ للقرآن متماشيا مع التقدم العلميّ والحضارة الثقافيّة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن جني. (١٩٩٩). *الخصائص* (الطبعة الرابعة). مصر: الهيئة العامة للكتاب.

ابن عاشور، محمد طاهر. (١٩٨٤). *تفسير التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.

أكرم، رضا. (٢٠٠٨). *بالقرآن نجدد الحياة: قراءة تدبرية في سورة مريم* (الطبعة الأولى). شركة ألفا للنشر والإنتاج الفني.

بدوي، أحمد زكي. (١٩٨٥). *معجم مصطلحات الإعلام*. القاهرة: دار الكتب المصرية.

التهانوي. (١٩٧٢). *كشاف اصطلاحات الفنون* (المجلد الثاني). مصر: الهيئة العامة للكتاب.

حمد أمين، دلدار غفور، وعلي محمود، نشأت. (٢٠١٤). نظرية التواصل وأبعادها في الدرس اللغوي العربي. *مجلة زانكو للعلوم الإنسانية لجامعة صلاح الدين، قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة صلاح الدين، أربيل*، ١١٧-١٣٤.

السيد قطب. (١٩٧٢). *في ظلال القرآن* (الطبعة الأولى). القاهرة: دار الشروق.

شلباب، جمال. (٢٠١٦-٢٠١٥). *استراتيجية الإقناع في الخطاب القرآني (السور المكية أنموذجاً)* (أطروحة ماجستير). جامعة محمد بوضياف، الجزائر.

شولتر، روبرت. (١٩٩٣). *السيمياء والتأويل* (ترجمة: سعيد الغانمي، الطبعة الأولى). بيروت: المركز الثقافي.

الصابوني، محمد علي. (١٣٨٠ هـ.ش/١٤٢٢ هـ.ق). *صفوة التفاسير* (الطبعة الثانية). طهران: نشر إحسان.

الطنوبي، محمد عمر. (٢٠٠١). *نظريات الاتصال* (الطبعة الأولى). مصر: مكتبة الإشعاع الفنية.

عبد الرحمن، طه. (٢٠١٢). *اللسان والميزان أو التكاثر العقلي* (الطبعة الثالثة). المغرب: المركز الثقافي.

العسكري، أبو هلال. (١٩٦٣). *الفروق في اللغة* (الطبعة الرابعة). بيروت: دار الآفاق الجديدة.

كاوي، حسن عماد، وسيد، ليلى حسين. (٢٠٠٢). *الاتصال ونظرياته المعاصرة* (الطبعة الثالثة). القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

مزواغي، أحمد. (٢٠١١-٢٠١٢). *أساليب الإقناع في سورة يوسف* (ماجستير). جامعة وهران، الجزائر.

مك دانل، دايان. (١٣٨٠ هـ.ش). *مقدمة في نظريات الخطاب* (ترجمة: حسينعلي نوذري، الطبعة الأولى). طهران: فرهنگ گفتمان.

نادية لوانس، سعيدة شادلي. (٢٠١٣/٢٠١٢). *الاتصال والتواصل في القرآن الكريم: سورة يوسف عليه السلام نموذجاً* (مذكرة ليسانس). جامعة آلي محند أولحاج، الجمهورية الجزائرية.